المشرق

رحلة

السيد المسيح الى فينيقية والمدن العشر

خطبة القاها الاب الفرد دوران اليسوعي
مدرّس شرح الاسفار المقدّسة في المكتب الشرقي

سادتي الاجلّاء (*)

يسرّني أن اخطب بينكم في امر تصبو اليه قلوبكم وتتوق الى معرفته جوارحكم ألا وهو مجي السيّد المسيح الى بلادكم وتقديسهُ لاوطانكم . في رحلة باشرها الى تخوم فينيقية وعمّها بزيارة المدن العشر وانجزها كالوف عادته بعمل الخير وصنع الايات (١

١

يخبرنا الانجيل الشريف بصريح العبارة انّ السيّد المسيح في ايّام بشارته « ذهب الى تخوم صور وصيداء » (ἀπῆλθεν εἰς τὰ ὅρια Τύρου καὶ Σιδῶνος) (مرقس ٧ : ٢٤) ولم تكن تلك الرحلة فقط الى جبات الجليل المجاورة لفينيقية بل دخل فينيقية وتجوّل فيها كما يظهر من كلام القديس متى حيث يقول (١٥ : ٢١) . « انهُ رحل الى جهات صور وصيداء » فانّ النص اليوناني (ἐκεῖθεν εἰς τὰ μέρη) يدلُّ على توغلهِ في اصقاع فينيقية

(*) تُليت هذه الخطبة بحضور نيافة القاصد الرسولي السيّد فريديانو جياتي والسادة اثناسيوس صوايا مطران بيروت عن الروم الكاثوليك وبولس بصبوص رئيس اساقفة صيدا وبطرس زغبي رئيس اساقفة قيرص عن الموارنة ويوسف الدوماني اسقف طرابلس عن الروم الكاثوليك

١) ليست غايتنا في وصف هذه الرحلة ان نجزم قطعياً بوصف كل المراحل التي قطعها السيد المسيح وانما اردنا فقط الدلالة على وجهة مسيره وتعيين طريقه على التقريب كما يستفاد من نصوص الاناجيل المقدّسة

وتجوّله في انحائها . وقد صدّر الانجيليّ هذه الآية بلفظة تدلُّ على انهُ لم يزر فقط تلك الجهات بل تردَّد فيها مدَّة من الزمان (ἀνεχώρησεν) معتزلًا فيها لينجو من دسائس اعدائهِ ويبتعد عن البلاد الخاضعة لحكم هيرودس انتيباس الذي كان يتوقع الفرصة الملائمة ليلقي عليهِ الايدي . فذلك ما حملهُ على ان يتجاوز حدود الجليل ويطلب لهُ مأوى في فينيقية لا لكونهِ يخاف اولئك الاعداء بل لكونهِ اراد ان ينتظر الساعة المحدودة من ابيهِ السماوي لانجاز سرّ الفدى . وهذا ما دفعهُ ايضًا الى ان يجيب الهيرودسيين الذين اتوا بعد ذلك ليجسُّوا اعمالهُ وينقارها لسيّدهم (لوقا ١٣ : ٣٢) : « اذهبوا قولوا لهذا الثعلب ها انا أُخرج الشياطين وأُجري الشفاء اليوم وغدًا وفي اليوم الثالث أُكمَّل » كأنهُ يقول لهم : ليس لاحد من البشر ان يمدَّ اليَّ يدًا قبل الساعة المعينة في حكم ابي الذي في السماوات

كم دامت رحلة السيد المسيح الى فينيقية والمدن العشر ؟ ليس الامر معلومًا . وعليهِ لا نوافق بعض الذين كتبوا سيرة المخلص في زعمهم بان الربَّ قضى في سياحتهِ المذكورة ستَّة اشهر منذ فصح سنتهِ الاخيرة في الربيع الى عيد المظلّات الواقع في الخريف . فانَّنا نرى تلك المدَّة طويلةً بالنسبة الى مجمل حياة المسيح العلنيَّة التي يحاولونها ثلاث سنوات ونصف سنة

بقي تعيين الطريق التي سلكها المسيح . ومما لا شكَّ فيهِ ان المعلم الالهي كان خارجًا من كفر ناحوم التي مرقسها على الضفَّة الشماليَّة من بحر الجليل ولكن في اي وجهة سار ؟ هل مال توًّا الى الغرب كما ظنَّ الكاتب فوار في ترجمة حياة المسيح : (Fouard *Vie de J-C.*, II. 10) ليبلغ بحر الشام على علوّ عكَّا ومنها يصعد على الساحل الى صور مارًّا بالرأس الابيض ؟ قال : « وانَّما فعل الربُّ ذلك لتجوُّله في ارض غريبة حيث لا يستطيع الناس ان ينالوا بسهولة قوتهم اليوميّ امَّا البحر فكان الرُّسل الصيَّادون يستطيعون ان يلقوا فيهِ شباكهم ويرتزقون بثمرة صيدهم ولذلك ما كان الربّ ليقدر ان يبتعد عن السواحل البحريَّة او عن ضفاف الانهار كالاردن والقاسميَّة » . لكنَّ هذا كما ترى برهان ضعيف وهو يقتضي القول بان الرسل كانوا حيثما ساروا يحملون معهم شباكهم وقواربهم وهو قول من الغرابة بمكان

والمرجَّح عندنا انَّ السيد المسيح وتلاميذهُ اتَّجهوا الى صور على خط مستقيم

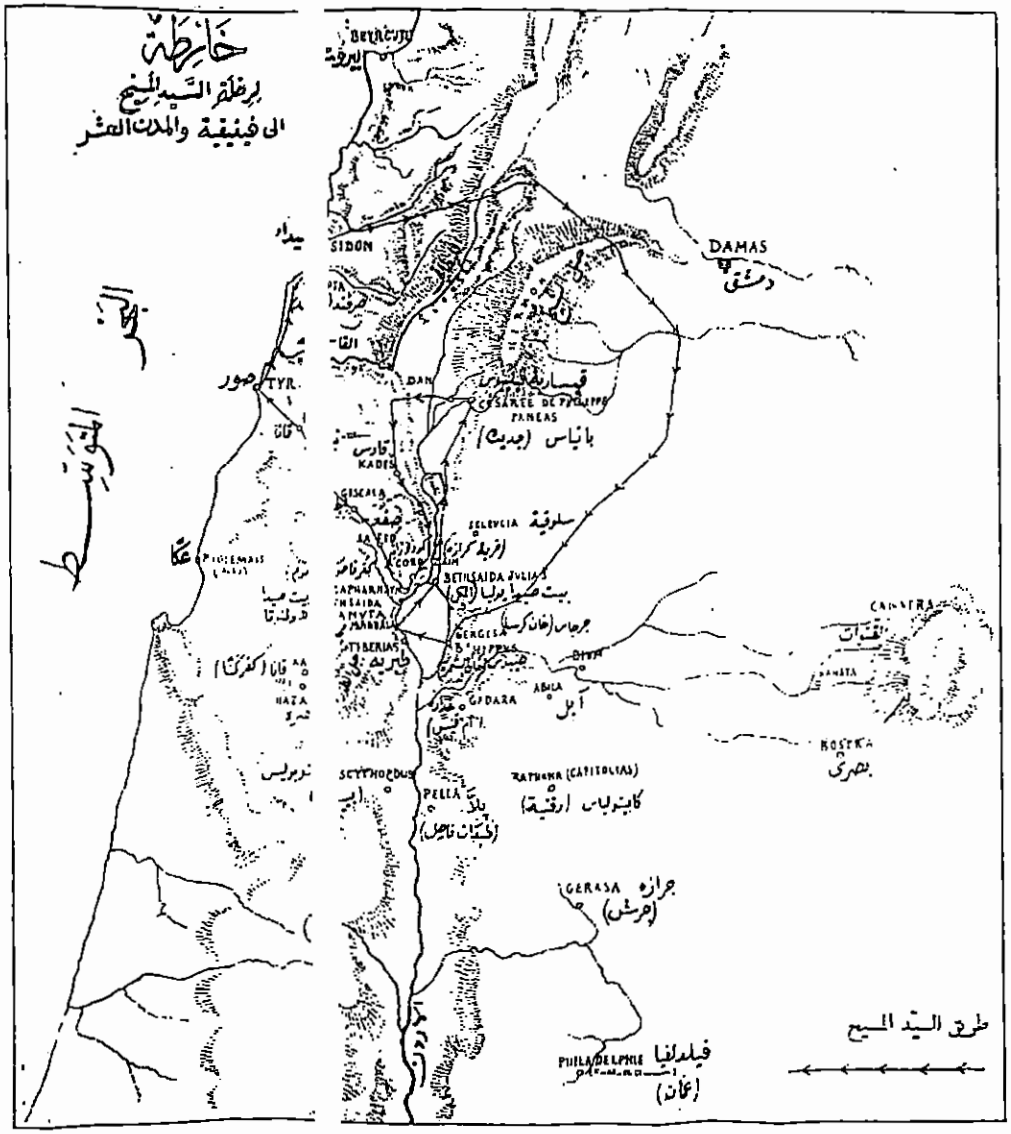
خارطة
برفقة السيد المسيح
الى فينيقية والمدن العشر
البحر المتوسط
صيدا
SIDON
صور
TYR
عكا
PTOLEMAIS
(كفرنا)
DAMAS
دمشق
قيسارية فيلبس
CAESAREE DE PHILIPPE
PANEAS
بانياس (جديد)
سلوقية
SELEUCIA
(أربد كرسي)
BETHSAIDA JULIAS
بيت صيدا يوليا (أل)
جرجاس (خان كرسي)
GERGESA
HIPPOS
طبرية
TIBERIAS
GADARA
أبل
ABILA
CANATHA
قنوات
BOSTRA
بصرى
SCYTHOPOLIS
PELLA
بلا
(فحل فاحل)
RATHANA (CAPITOLIAS)
كابتولياس (رقية)
GERASA
جرازه
(جرش)
PHILADELPHIE
فيلدلفيا
(عمان)
طرق السيد المسيح

فقطعوا بلاد الجليل العليا على سكّة كان الرومان اصطنعوها هناك وكان يسكن تلك الجهات اليهود والوثنيون معاً ولذلك كانت تُدعى بجليل الأمم وهي المعروفة اليوم ببلاد بشارة. وما كان الربّ ليحتاج الى قوته اليومي مع رسله لأنّ اسمهُ كان فاشاً في تلك النواحي وكثيرون من اهلها كانوا سمعوا تعاليمهُ مع القوم المزدحمين حولهُ عند بحيرة طبريّة ورأوا معجزاته وآمنوا به فتسارعوا الى دعوته وضيافته عندهم

اما مسافة هذه الطريق بين كفرناحوم وصور فليست بطويلة اذ يمكن قطعها بست عشرة ساعة ومن ثمّ لم يكن من داعٍ كافٍ ليسرع السيّد في رحلته فانّ هيرودس كان يضعف صوتُ هديره على قدر ما كان السيد المسيح يتقدّم نحو الشمال واحلّ ضيفاً كريماً في المدن التي يسكنها سبطا بني اسرائيل اشير ونفتالي. فزار من مدنهم صفد حيث كان ذكر طوبيا البارّ حيّاً مكرّماً. ثم جشّ موطن بولس الرسول على رأي القديس ايرونيموس. وكفر برعم مدفن القاضي بارق والنبيّ عبديا. وقانا التي هي على زعم اوسابيوس القيصري القرية التي فيها اجترح المسيح اول معجزاته المذكورة في انجيل يوحنا (ف٢). على اننا نذكر رأي اوسابيوس دون ان ندافع عن صحته

وكانت بلاد بشارة في ذلك العهد من اخصب بلاد الشام تجاري بلاد الجليل السفلى من بحيرة طبريّة الى مرج بني عامر في خصبها ووفرة غلّاتها حتى انّ يوسيفوس المؤرخ كان يدعوها بجنة عدن فيها نمت نبوّة يعقوب حيث قال عند موته لابنه اشير (تك ٤٩: ٢٠): «اشير طعامهُ دسم وهو يعطي ملذّات الملوك» وكان موسى قد اضاف الى ذلك قوله (تث ٣٣: ٢٤): «يكون اشير بين البنين مرضيّاً عند اخوته وفي الزيت يغمس رجلهُ» ويشهد على تمام هذه النبوّة ما هناك من غابات الزيتون التي هي ثروة الاهلين

واذ توغّل السيد المسيح الاكمات التي تُرى عندها تنين وقعت ابصارهُ الالهيّة على صور وصيداء فتذكر ما جرى في تينك المدينتين من الامور الخطيرة وفكّر في حضارتهما السابقة وحلف اهلهما وتمام نبوّتي اشعيا وحزقيال في خرابهما. والحقّ يقال انّ صور كانت يومئذٍ اشبه بقفر في وسط المياه لا تكاد تُسمع جلبةُ اهلها وعمّا قليل سوف تصبح صخور جزيرتها كما يقول حزقيال النبي (٢٦: ٥) «مبسطاً للشباك في وسط البحر». اما صيدون الكبيرة امّها فكانت في حالة لسوأ ايضاً فكان السيد

المسيح يبصرها جالسةً على ساحلها كعذراء مهينةٍ مذلّلة يردّد البحر على مسامعها نشيد اشعيا النبي (٢٣ : ١) حيث يقول: « اخزي يا صيدون فان البحر حصن البحر قد تكلّم قائلًا: اني لم احبل ولم أَلد ولم أُربِّ فتياناً ولم أُنشئ عذارى »

فكل هذه النبوّات قد تمّت لم يُنقَض منها حرفٌ لكنّ الربّ تذكّر ايضاً لحجاجهُ للمدينتين الفينيقيّتين لمّا رجّح خطيئة الجليل على خطيئتهما فقال مخاطباً كورزانيم وبيت صيدا: « لو صُنع في صور وصيدا ما صُنع فيكما من القوّات لتابتا من قديم بالمسوح والرماد »

وكان مسير السيّد المسيح في تخوم صور وصيدا بين الاهلين الوثنيين مسير راحل ومسافر ليست غايتهُ الدعوة والبشارة لأنّ اباهُ كان وكّل اليهِ فقط الرسالة « الى الخراف الضالّة من آل اسرائيل » (متى ١٥ : ٢٤) بل كان يسير مستخفياً « ولم يُرد ان يَعلمَ احد » (مرقس ٧ : ٢٤) لكنّ الانجيليّ يُردف كلامهُ بقولهِ « فلم يقدر ان يستتر » لانّ اسمهُ وعجائبهُ كانت شائعة « قبل ذلك بزمان » فذاع خبرهُ في جميع سوريّة » (متى ٤ : ٢٤) وكان « كثير من أدوم وعبر الاردنّ ومن حول صور وصيدا قد سمعوا بما صنع فاتوا اليهِ » (مرقس ٣ : ٨ ولوقا ٦ : ١٧). فلا غرو انّ الجموع عند مرورهِ في سواحل فينيقية عرفت بمجيئهِ وتقاطرت الى رؤياه

على انّ الانجيليين لا يخبروننا أدخل يسوع في مدينة صور ام لا . ورأينا انهُ دخلها لأنّهُ كان ايسر لهُ في مدينة كصور أن يتوارى عن اعين الناس من ان يستخفي في ضواحي البلاد المكشوفة . لكنّنا كما قلنا لم يقدر السيّد المسيح ان يستتر تماماً وكيف يا ترى تحتجب الشمس التي تبهر بنورها وتُضرم بحرارتها وكذا السيد المسيح كان لا يجتاز في مكان الّا ويصنع الخير فما كان يمكنهُ ان يبقى مجهولًا

ومن آثارهِ في رحلته تلك شفاؤه لابنة المرأة الكنعانيّة كما اخبر القديسان (متى ف ١٥ ومرقس ٧) ولا بدع انهُ اظهر لها الجفوة والغلظة لا لانكاره عليها شفاء ابنتها بل ليظهر قوّة ايمانها ويثني على ثقتها . قلنا انّ المرأة كانت كنعانيّة وهكذا دعاها القديس متى (١٥ : ٢٢) وفقاً للاصطلاح الجاري وقتئذٍ عند اليهود في تسميتهم لاهل سواحل سوريّة وقد زادنا القديس مرقس في اصلها ايضاحاً بقولهِ (٧ : ٢٥) انها « كانت يونانيّة جنسُها من فينيقية سوريّة » (Ἑλληνὶς , Συροφοινισσα) مشيرًا بذلك الى اختلاط

الاجنلس في سواحل الشام. وكان اليونان منذ عهد هيرودوتس يطلقون اسم سوريّة ليس فقط على فينيقية وضواحي دمشق بل ايضاً على كلّ سهول البقاع فيدعونها بالوادي العظيم وعلى بلاد فلسطين

ولن سأل السائل عن تحديد المكان الذي فيهِ اجرى المسيح شفاء ابنة الكنعانيّة لجبنا انّ الامر ليس بواضح فمن الممكن القول بانّ ذلك حدث في صور. ولعلّ الارجح انهُ حصل بين صور وصيدا. وقد جاء في بعض التقاليد انّ الربّ اتمّ ذلك في صرفند. وليس بمستبعد انّ اصحاب هذا القول ارادوا معارضتهُ على ما فعل الياّ النبيّ هناك من المعجزات الباهرة خصوصاً باقامتهِ من الموت ابن ارملة صرفند الوحيد (٣ ملوك ١٧). وقد ورد في الميامر المنسوبة الى القديس قليميس المكتوبة في سوريّة في القرن الثالث للميلاد انّ الكنعانيّة التي رحمها الربّ بشفاء ابنتها كان اسمها يُستا اي عادلة وكانت ابنتها تُدعى برنيقي

ثمّ تجاوز السيّد المسيح حدود صور صاعدًا الى صيدا. مجتازًا بها يشهد على ذلك الانجيليّ مرقس بقولهِ (٧: ٣١): «ثمّ خرج من تخوم صور ومرّ في صيدا». وكأني بكم تسألوني وهل بلغ ابن الله مدينتنا بيروت؟ قلتُ انّ الامر لمحتمل وان لم نجد نصًا صريحًا في ذلك. وممّا يزيدهُ رجحانًا تقليد محليّ يرتقي على الاقل الى الاجيال المتوسطة (١. ولعلّ سبب سكوت الانجيليين عن ذكر بيروت انها في ذلك الزمان لم تحرز بعد شيئًا من المفاخر التي نالتها بعد هذا بسنوات قليلة من الابنية الفخيمة التي شيّدها هيرودس اغريبا والمدرسة الفقهيّة الشهيرة التي أُنشئت فيها وتقاطر اليها الطلبة من اقاصي العالم الروماني. وعلى كلّ حال اننا نفضل رأي القائلين بمجيء السيّد المسيح الى بيروت على قول بعض الكتبة الذي يزعمون بأنهُ أبحر الى جزيرة قبرس وبلغ الى جبل اثوس

٢

على ايّ طريق رجع المسيح من سواحل فينيقية الى بحر طبريّة؟ افادنا عن الامر بعض الافادات البشير مرقس حيث قال (٧: ٣١): ومرّ في صيدا وجاء فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل (Καὶ πάλιν ἦλθεν . . . διὰ Σιδῶνος εἰς τὴν θάλασσαν τῆς Γαλιλαίας ἀνὰ μέσον τῶν ὁρίων Δεκαπόλεως)

١) اطلب الحوائي في ذيل تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ١٧)

فاوّل ما يُقتضى بيانهُ ما هو المقصود بالمدن العشر . كان اهل ذلك الزمان يدعون بهذا الاسم مدناً متحالفة من المدن اليونانيّة الرومانيّة الواقعة في عبر الاردن في شرقيهِ وشرقي دمشق الى عمّان ومن بصرى شمالًا الى بيسان ، التي كانت وحدها في ضفّة الاردن الغربيّة . فكان موقع المدن العشر يوافق ما ندعوهُ اليوم بلاد جولان وحوران وقد دخلت هذه المدن العشر في حكم بني حشمناي على عهد اسكندر يانّاوس في مبادئ القرن الثاني قبل المسيح ثمّ نالت من فضل بمبيوس نحو سنة ٦٤ ان تُدير احوالها بنفسها معتزلة عن حكم فلسطين خاضعةً لعاصمة المملكة الرومانيّة . ثمّ غلب عليها العنصر اليوناني وكان اهلها يعتصبون ليردّوا عنهم غزوات القبائل الساكنة في جوارهم وربما تمكّنت منهم تلك القبائل حتى مدّت عليهم سيطرتها واختلطت الحضارة الساميّة بالتمدن اليوناني . بل كان لتلك الغلبة على هذه كما حدث في عهد دولة النبطيين الذين قويت شوكتهم وامتدّت سلطتهم الى دمشق وكان المالك عليها في عهد المسيح وبولس الرسول الحارث الرابع كما يُستفاد من رسالة بولس الى اهل غلاطية

وكانت محالفة هذه المدن مباشرةً تنحصر في عشر مدن فقط ذكرها پليني الكاتب الروماني في كتاب النبات (Pline, V, 16 (18)) وهي سيتوپوليس (بيسان) وبالًا (طبقات فاحيل) وديون وفيلادلفية (عمّان) وغدارة (ام قيس) ورفنية وقنوات وهيپوس ودمشق ثمّ انضمّ اليها غيرها من المدن حتى اصبحت في عهد بطليوس الجغرافي (Tab. IV Asiae) بعد ذلك بخمسين سنة ثماني عشرة مدينة وهو يستثني منها مدينة رفنية ويجعل بدلًا منها تسع مدن اخصُّها آبل في البتنيّة والقنوات وكاپيتولياس . ولمّا تولّى الامر الامبراطور ترايان قسم تلك المدن وجعلها اقليماً ممتازاً رأس عليه نائباً من قبلهِ . وكانت تلك البلاد كثيرة الخصب واسعة المراعي تصدر منها الغلّات الوافرة الى انحاء المملكة وتأتيها محصولات البلاد فتُقام فيها الاسواق التجاريّة وتزدحم اليها اهل البادية

دعنا الان نعود الى سياحة الخاص . فترى اي طريق اتجهها ليعود من سواحل فينيقية الى بلاد المدن العشر على حدود بادية الشام ؟ قد زعم السيّد لوكاموMgr Le) (Camus في سيرة السيد المسيح انّهُ لذكرهِ المجد رجع على اعقابه من صيدا الى صور الى الكرمل ثمّ عدل الى الشرق عن شمالهِ فعبر الاردن على ارتفاع بيسان . وهو على رأينا زعمٌ باطل يخالف نصّ الكتاب فانّ الانجيليّ مرقس صرّح بان الربّ «مرّ في

صيدا وجاء فيما بين تخوم المدن العشر " فيتبادر الى العقل انهُ عطف من حيث وصل الى المدن العشر قاصدًا لها على خط مستقيم ليس انهُ كرَّ راجعًا على آثاره . مثال ذلك قولنا عن زيد انهُ رحل من صيداء الى دمشق مارًّا في بيروت فلا يخطر على بال احد ان يجعل طريقهُ على صور ومنها الى بانياس ثمَّ دمشق . وكذلك يقول الكتاب انَّ السيد المسيح اجتاز في وسط المدن العشر (διὰ μέσον Δεκαπόλεως) فلو رجع القهقرى الى الكرمل ودخل منها الى ناحية بحر الجليل لما صدق ذلك لأنَّ المسيح لا يكاد يرى منها غير طرفها بين بيسان وغدارة وهيبوس (اطلب خارطتنا)

فلنقولنَّ اذن انَّ السيّد المسيح بعد زيارتهِ لصيدا عرَّج الى اليسين ومال الى الشرق في وجهة بلاد جولان ومن ثمَّ انهُ قطع جبل لبنان . ولكن في اي مكان فعل ذلك أتبع وادي الليطاني فقطع هذا النهر تحت قامة الشقيف الشهيرة على الجسر المسمَّى اليوم بجسر الخردليّ كما يفعل اهل تلك النواحي ؟ او سار على السكة الرومانيَّة التي كانت تؤدي من بيروت الى دمشق ؟ او بالحري جرى على خطّ مستقيم من صيداء الى البقاع في بعض السُّبُل غير المسلوكة اليوم او ايضًا على طريق جزّين فكلُّ ذلك تخمينات لا نستطيع ان نثبتَ فيها الحكم ولعلَّهُ اختار طرقًا غير مطروقة اذ لم تكن غايتهُ اذ ذاك ان يُعلن بنفسهِ للعالم ويجلب النظر الى شخصهِ الكريم

ومهما كان من امر الطريق التي سلكها المسيح لا بُدَّ انَّهُ لمّا عند وصولهِ الى بلاد البقاع طريقين امكنهُ ان يجري على ايتهما شاء : الواحدة طريقة سهلة وقريبة كان الرومان مدُّوها حول جبل الشيخ الى قيسارية فيليبوس اي بانياس . والأخرى كانت تتصعد الى الشمال فتبلغ الى راشيا ثمَّ تمرُّ بقطنة . وعلى رأينا انَّ الربَّ اعتزل الطريق المطروقة ليسير في هذه الطريق الاخيرة لقلَّة سابلتها ثمَّ ايضًا لحايدة قيسارية التي يذكر الانجيليّ رجوعهُ اليها بعد عودتهِ الى الجليل بزمن قليل . وزد على ذلك انَّ سياق الرواية الانجيليَّة ينطبق اكثر مع هذه الطريق من غيرها

فمن ثمَّ نقول انَّ السيّد المسيح مرَّ على هذه الطريق الشماليَّة التي هي طريق دمشق . ولكنَّ أتراهُ دخل تلك المدينة الفيحاء ؟ الغالب انهُ لم يدخلها فلو زارها لأثبت زيارتهُ فيها أثرًا ما سواء كان في الانجيل الكريم او في تقليد النصارى الاولين وليس في كليهما دليل على ذلك

وكذلك سكت الانجيليُّون عن تفصيل اخبار السيّد المسيح في اجتيازهِ للمدن العشر. وغاية ما نعلمهُ انهُ رجع الى الجليل من عن شرقيّ بُحيرة جناسر مارًّا في وسط نواحي كان الشرك يمدُّ اطنابهُ على قسم كبير من اهلها فقدَّس الربّ منازلهم وشفى عاهاتهم وزوع في قلوبهم بذور الخلاص التي نمت بينهم بعد صعودهِ نموًّا عجيباً. وكان سكان المدن العشر يعرفونهُ عزَّ وجلّ قبل مرورهِ في جهاتهم فجاؤوا غير مرَّة الى الجليل لاستماع كلامهِ وقد صرَّح متى الانجيليّ بذلك (٤ : ٢٥) عند ذكرهِ خطبة المسيح الى الجموع الذين « تبعوهُ من الجليل والمدن العشر واورشليم واليهوديَّة وعبر الاردنّ »

ومن نعمهِ الحديثة نحو اهل تلك البلاد شفاء ذلك المجنون الذي بُلي بشيطان نجس او بالحري بجوقةٍ من الشياطين (مرقس ٥ : ١—٢٠) فطرد السيّد المسيح الابالسة الاشرار وردَّ اليهِ عقلهُ سليماً ولمَّا سألهُ ذلك الرجل ان يكون معهُ قال لهُ طبيبهُ الالهي : « اذهب الى بيتك الى ذويك وأخبرهم بما صنع الربُّ اليك وبرحمتهِ لك » وقد جرى ذلك في بقعة الجرجاسيين. ومدينتهم جرجاس تُعرف اليوم بخان كرسا. الَّا انَّ اسم المدينة قد تصحَّف في نُسخ الاناجيل فجاء في بعضها بدلًا من جرجاس اسم غدارة او جدَر المماة اليوم بأُم قيس (المشرق ٨ : ٥٤) وروى ايضاً اسم جرازة المعروفة بجرش. قال البشير : « فلما برئ ذاك الرجل من سقمهِ خرج وطفق يُنادي في المدن العشر بما صنع يسوع اليهِ وكان الجميع يتعجبون » (مرقس ٥ : ٢٠)

فلا غرو انَّ اهل تلك المدن ذكروا تلك النعم فتقاطروا الى يسوع لمَّا عرفوا بقدومهِ الى بلادهم فجدَّد بينهم الخوارق والايات منها تلك المعجزة الباهرة التي اجترحها مع اصمَّ اخرس نحَّاه عن الجمع وجعل اصابعهُ في أُذنيهِ ولمس لسانهُ قائلًا : انفتح فانفتح مسامعهُ وانحلَّت عقدة لسانهِ وتكلَّم بطلاقة. وكان الربّ امر ذلك الانسان ان لا يخبر بامرهِ احداً لكنَّ الشكر اطلق لسانهُ ولسان اهلهِ فبشَّروا بشفائهِ في كلّ ناحيةٍ حتى كان الجميع يصرخون : « لقد احسن في كل ما صنع جعل الصمّ يسمعون والبكم ينطقون » (مرقس ٧ : ٣٢—٣٧) وقال متى (١٥ : ٣٠) : « انَّ جموعاً كثيرة دنت اليهِ معهم خرس وعميان وعُرج ومعوَّهون وآخرون كثيرون فطرحوهم عند اقدامهِ فشفاهم .... وكانوا يمجدون إله اسرائيل »

وكانت تلك الجموع تتراكم حول المخلص وتزيد يوماً بعد يوم حتى بلغ عددهم

اربعة الاف سوى النساء والصبيان وتبعوهُ مدةَّ ثلاثة ايام في القفار حتى انفدوا ما اصطحبوهُ معهم من الزاد فتحنن عليهم الربّ « ولم يشاء ان يصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق ». فجدَّد بسببهم آية كان اصطنعها سابقاً مع غيرهم وقاتَ اولئك القوم بسبعة ارغفة وبسير من السمك. وقد جرت تلك الاية في ضفَّة بحر الجليل الشرقية في مكان لم يمكن اليوم تعيينهُ بالتدقيق. ثمَّ صرف الجمع وركب السفينة

٣

فلمَّا عبر البحيرة نزل غربيَّها في تخوم مجدل (متى ١٥ : ٣٩) الى نواحي دَلمانوتا (مرقس ٨ : ١٠) والرأي الغالب عند المفسرين ان مجدل هذه هي قرية مريم المجدليَّة وموقعها على ساحل بحر الجليل شمالي طبريَّة. ولعلَّ دلمانوتا تدلُّ على الغيضة التي فوق مجدل عند الطريق الصاعدة الى قرن حطّين

وما كاد السيّد المسيح يظهر في الجليل بعد عودته من رحلة فينيقية والمدن العشر حتى اقبل اليهِ الفريسيُّون والصدُّوقيُّون ليمتحنوه فاخذوا يدسُّون لهُ الدسائس ويلقون عليهِ الاسئلة ليصطادوهُ بكلمة فزجرهم الربّ اولئك المرائين بقولهِ (متى ١٦ : ٢—٤) : « اذا كان المساء قلتم صحوٌ لأنَّ السماء محمرَّة . وبالغداة اليوم مطر لانَّ السماء محمَّرة كالحة. أفتعلمون ان تميّزوا وجه السماء وعلامات الازمنة لا تستطيعون أن تعرفوها »

ولمَّا تحقَّق الربّ ان اعداءهُ لا يزالون يكيدون لهُ المكايد ويطلبون هلاكهُ اراد ثانيةً الابتعاد عن الجليل فانجز من وقتهِ وكرَّ راجعاً الى العبر الى حيث يصبُّ الاردن في البحيرة فنزل وراء النهر قريباً من بيت صيدا يوليا المدعوَّة بهذا الاسم نسبةً الى يوليا ابنة الامبراطور اوغسطوس. وكانت تلك الجهة واقعة في املاك فيليبُّوس رئيس الربع اخي هيرودس انتيباس وكان هذا لا ينوي الشرَّ للمسيح كاخيهِ هيرودس

وهناك قدَّموا اليهِ أعمى (مرقس ٨ : ٢٢—٢٦) فاخرجهُ الى خارج القرية فابرأهُ سرًّا ثمَّ صرفهُ بعد ان اوصاهُ بألَّا يقول لاحدٍ شيئاً عن شفائهِ . وكأنَّ الرجل هذه المرَّة اطاعهُ

ثمَّ واصل الربّ طريقهُ الى الشمال صاعداً على ضفَّة الاردن الشماليَّة الى عيونهِ في خلف جبل الشيخ . وفي عطف هذا الجبل مغارة تُعرف منذ زمن قديم باسم پانيون (Πανιον) اي مغارة الإله پان لاختصاصها بعبادة هذا المعبود ومنها اسم بانياس للبلدة

المجاورة لها. وكان اوغسطس قيصر اقطع هذه البلدة مع ما يحدق بها هيرودس الكبير. فلما مات هيرودس وقعت المدينة في حصة فيلبُّوس اصغر اولاده. وقد سمى هذا بترميمها وتحسينها ثمَّ دعاها بقيسارية شكرًا لطيباريوس قيصر المحسن اليه ثمَّ اضافوا اليها اسم فيلبُّوس تمييزًا لها من قيسارية المدينة القديمة الواقعة على ساحل بحر الشام بين يافا والكرمل. وقد استولى الخراب على قيسارية فيلبوس. وفوق بقاياها تقوم اليوم بانياس الحديثة

وكان هذا المكان المنفرد يوافق رغبة السيد المسيح الطالب العزلة ولاسيما انَّ الرومان كانوا اعترفوا لتلك المدينة ببعض حقوقها القديمة فعدُّوها من الملاجئ التي يستطيع ان يلوذ بها من تخوُّف عدوَّهُ. ولنا على ذلك شاهد في نقود المدينة فيُقرأ عليها باليونانية ΠΑΝΕΙΟΝ ΑΣΥΛΟΣ اي «بانياس مدينة الملجأ»

ولا غرو انَّ المسيح نزل في قيسارية ضيفًا موقرًا في بيت امرأة كان شفاها من علتها في كفر ناحوم. نريد المرأة المبلوَّة بنزف الدم من اثنتي عشرة سنة (متى ٩: ٢٠ مرقس ٥: ٢٥ لوقا ٨: ٤٠) التي تسرَّبت الى يسوع في وسط الجمع ومسَّت ثوبهُ خفيةً فشفاها الربّ لاجل ايمانها. فاوسابيوس المؤرخ الكنسيّ اثبت في تاريخهِ (ك ٧ ف ١٧) انَّ تلك المرأة كانت من قيسارية فيلبُّوس وانَّها شكرًا للمخلص اقامت في بستانها تمثالهُ الكريم وزاد تاوفانوس في تاريخهِ انَّ هذا التمثال بقي الى زمن يليانوس الجاحد فأمر هذا بتحطيمهِ

ولا نظنّ انَّ السيد المسيح اطال المكث في قيسارية فلم يؤثر في قلبه شيءٌ من محاسنها وفخامة ابنيتها وبهجة مناظرها الطبيعيَّة من اشجار باسقة وآكام تتوجها التاوج الغرّاء. وانَّما كانت نفسهُ مفعمةً باكدار الساعة الحاضرة تتوق الى الوحدة والانفراد فكان تارةً يصعد الى مشارف جبل حرمون وتارة يتبطَّن الاودية التي يخصبها الاردنّ بمياههِ الزلالية ويُنمي فيها الغابات الوارفة الظلال. وربما كان يخلو بنفسهِ عن تلاميذهِ «ليصلي على انفراد» كما اخبر القديس لوقا (٩: ١٨) ومن البديهيّ انهُ كان يفيض نفسهُ امام ابيهِ السماويّ وكأني بهِ يردّد صلاةَ لداود توافق احوالهُ اي موافقة (مز ٤١): «لماذا تكتئبين يا نفسي وتقلقين فيّ... الهي اذكرك من ارض الاردنّ وجبال حرمون من جبل مصعر. غمرٌ ينادي غمرًا على صوت خرَّاراتك. جميع تيَّاراتك وامواجك قد جازت عليَّ»

ولمّا انتهى من صلاتهِ ومن مناجاة ابيهِ اراد ان يكشف عن ابصار تلاميذهِ شيئاً من حجاب الغيب بازاء تلك المحاسن الطبيعيَّة البديعة في حلف تلك المشارف التي خصَّها البشر بعبادة الاصنام لاسيما بعل حرمون. فالقى على رسلهِ سؤالًا لم يكونوا لينتظروهُ قائلًا (متى ١٦: ١٤—٢٠): «من تقول الناس انّ ابن البشر هو؟ فقالوا: قوم يقولون انَّك يوحنَّا المعمدان وآخرون انك ايليا وآخرون انك ارميا او واحد من الانبياء. فقال لهم يسوع: وانتم من تقولون اني هو؟ فبادر بطرس واعلن بايمانهِ قائلًا: انت المسيح ابن الله الحيّ». وكلُّكم سادتي يعلم كيف الربّ جازى ايمان بطرس حيث طوَّبهُ بسببهِ وأكَّد لهُ ان الذي وضع على شفتيهِ ذلك القول ليس هو اللحم والدم وانما هو ابوهُ الذي في السموات ثمَّ جعلهُ صفاة كنيسته الثابتة التي لن تقوى عليها قوّات الجحيم ثمَّ قلَّدهُ الرئاسة التامَّة على بيعتهِ بكلام لا يبقي شبهة لكل طالب حقّ قائلًا: «ساعطيك مفاتيح ملكوت السماوات (١ فكلّ ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطاً في السماوات وكلّ ما حللتهُ على الارض يكون محلولا في السماوات». فيا لله ما اعظم ما نال بطرس وخلفاؤهُ من السلطة السامية. دعونا أيُّها الكرام نحتي هنا كنيسة المسيح ورأسها المنظور حيث انَّ اسمها واسم رأسها سُمعا لاوَّل مرَّة في جهتكم فيحقُّ لكم ان تفتخروا بما نالتهُ بلادكم من المجد الاثيل بانشاء تلك السلطة الروحيَّة العجيبة في ظهرانيكم وليفرح منكم كلّ من حظي بنعمة الوقوف على تلك الصفاة وليضحِّ كلّ شيء دون الانفصال عنها لانَّ الخلاص موعودٌ لمن يثبت عليها

وبعد هذا العمل الخطير انحدر السيد المسيح مع تلاميذهِ الى وادي الاردن ثمَّ سار على ضفَّتهِ اليسرى. وفي طريقهِ لقي آثار مدينة دان التي كانت اقصى حدود اسرائيل الشماليَّة. ثمَّ أدَّى بهِ المسير الى بحيرة الحولة فرأى على سواحلها نباتات السدر والبرديّ التي كان أتمها في منفاهُ الى مصر. ثمَّ عاد أخيرًا الى كفر ناحوم ليواصل هناك بشارتهُ بملكوت السماوات منتظرًا بهدوّ وثقة ساعة ضحيَّتهِ الاخيرة. لكنَّهُ اراد قبل ذلك أن يؤيد ايمان بعض خاصتهِ بتجليهِ على جبل الطور. امَّا انا فاقف عند هذا الحد لأن ذلك الحادث لا يدخل في ما توليت وصفهُ من رحلة المسيح الى فينيقية والمدن العشر

(١) راجع مقالة حضرة الاب م. شوسًا في معنى هذه العبارة ملكوت السماوات (المشرق ٦: ٨٦٣)

الّا اني لا يمكنني ان اختم كلامي دون ان اشير الى اثار تلك السياحة الالهيّة فانها لم تنحصر ببعض المعجزات اصطنعها الربّ في اثناء مسيرهِ. كلّا فان المسيح كان حيثما يحلّ يلقي زرعهُ كالزارع النشيط فيزكو الزرع وينمو ويأتي في وقتهِ بثلثين ضعفًا بل بالستين والمئة . وقد تحقّق ذلك خصوصًا في سواحل الشام اذ لم يمرّ عليها بضع سنوات حتى ازدهرت كنائسها وتوفّر مؤمنوها كما يشهد على ذلك كتاب الاعمال في وصف اسفار بولس الرسول الذي كان يرحّب بهِ الاخوة في مدن فينيقية

وكذلك المدن العشر انتشر فيها الدين النصرانيّ فاليها سار القديس بولس وبقي ثلاث سنين بعد ارتدادهِ ثمّ صارت احدى مدنها اي بلّا (طبقات فاهيل) مفزعًا لنصارى اورشليم التجأوا اليها قبل خراب المدينة المقدّسة وتدمير الهيكل على يد طيطوس. وبعد قليل أُنشئت هناك كنائس عامرة تنبئ بتقدّمها الاثار والتآليف القديمة

نعم انهُ حصل لتلك الكنائس محن وبلايا حتى تقهقرت مدّة اجيال متوالية وضعفت انوارها لكنّ زرع ابن الله لا يتلف تمامًا واملنا وطيد بان تلك الكنائس سوف تعود قريبًا ان شاء الله الى حسنها وجمالها ولنا ضمناء على آمالنا الطيبة اولئك الرعاة الصالحون الذين اقامهم عليها الكرسي الرسولي والمرسلون الغيورون الذين يتجوّلون فيها لنشر الانجيل وخصوصًا سيادة القاصد الرسولي الكلي الشرف والجزيل الاحترام. وحضور نيافتهِ هاهنا في هذه الحفلة ينعش رجاءنا ويكفل بقرب حلول امانينا فانّ امام الاحبار قد اقامهُ كنائبهِ على كنائس فينيقية والنحاء دمشق وحوران ليجدد مفاخرها السابقة ويستطر عليها نعم ذلك الراعي العظيم الذي تنازل وقدّسها بمرورهِ في اقطارها. امين اللهمّ امين

دبرا ليبانوس

او دير قديم في الحبشة العليا

لجناب الصيدلي القانوني عبد الله افندي ميخائيل رعد

(تتمّة لما سبق في المشرق ١٠ : ٢٧٣)

قبل ان اواصل القراء الكرام بتتمة رواية زيارتي لدبرا ليبانوس استميح حضرة